المحاضرة الخامسة: قضية التقليد والتجديد في الشعر العباسي

1- مدخل إلى العصر العباسي (سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية):

ولدت الدولة الأموية من رحم الصراع (علي/معاوية)، وتحول الدولة إلى دمشق وإعلان الخلافة لم ينه الصراع، بل قد يكون في ممارسات الحكم الأموي ما غذى التوتر والسخط، وانتهى الأمر إلى تجمع العلويين في فارس (بخراسان)، وهناك نظموا الثورة ضد الأمويين، تغذيهم أخطاء الأمويين خاصة قصف الكعبة، وقتل الحسين بن علي، وأنهوا الحكم الأموي في معركة الزاب (132ه)، لكن بعد عدة معارك استولى العباسيون على الخلافة بدل العلويين، وعاد الشيعة إلى الثورة والتمرد.

الخليفة الأوّل هو أبو العباس السفاح، لكن المؤسس هو خلفه أبو جعفر المنصور الّذي أخمد الثورات ونقل عاصمته إلى بغداد بالعراق، أين تألقت عدة قرون، وبقيت مشاغبات للشيعة والخوارج، أمّا بقايا الأمويين فتشتتوا، خاصة من ذهب إلى المغرب العربي؛ فمن خلاله عبر عبد الرحمن بن معاوية (الداخل/صقر قريش) إلى الأندلس، وأسس خلافة جديدة سنة 138ه (أموية) نافست بغداد والمشرق قرونا.

قرّب السفاح الفرس من الحكم، وهو ما مكنهم من السيطرة على مقاليده، فعوَّضوا عصبية الأمويين للعرب واحتقارهم للأعاجم بعصبية جديدة للعنصر الفارسي -أو لغيره-، قال الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني أمية عربية أعرابية»، وتألقت أسرة منهم (البرامكة) وتحكمت، فاحتفظوا بالوزارة أعواما طويلة، وكذلك (بنو سهل) وقد تركوا أثرا هاما في المجتمع والثقافة، إلى عهد المعتصم الّذي جلب جنودا أتراكا وبنى لهم سامرًا (سر من رأى)، فانتقل النفوذ إلى العنصر التركي ونكلوا بالفرس. وتمكن الأعاجم من العلوم رفعهم إلى درجات عليا (وزراء، كتاب، شعراء، فقهاء، مترجمون...)، فابن المقفع كبير الكتّاب فارسي، وكذلك بشار بن برد أوّل المجددين وأبو نواس...، واهتمام هذه العناصر **بأمجادها وثقافاتها** وتفوقها على غيرها ولد حركة تسمى

ب"الشعوبية"، فعدد من علمائهم وشعرائهم كتب يعير العرب ويمجد غيرهم، وكتاب "البيان والتبيين" كتبه الجاحظ ردا عليهم، يقول **بشار بن برد**:

هل مــن رســول مخبــر ... عنــــي جميــــع العـــــرب
بــــــــأنني ذو حَسَــــــــب ... عـــالٍ علـــى ذي الحســـب
جـــدي الّـــذي أســـمو بـــه ... كِســـرى، وساســـان أبـــي
وقيصــــــــر خـــــــالي إذا ... عَـــــدَدْتُ يومـــــا نســـــبي

وباختصار نقول أن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية أدى إذن إلى:

- نفوذ العناصر غير العربية (الفرس والأتراك وغيرهما)، وانتقاصها مــن العــرب واهتمامها وفخرها بأصولها، أسس لظهور حركة منحرفة تعرف **بالشعوبية.**
- طغيان الترف واللهو وتقليد الأعاجم في الجوانب الاجتماعية، أدى إلـــى انتشـــار **المجون** والتحلل من القيم تقابله **نزعة زهدية تصوفية** لمقاومة الانغماس في الملـــذات ومحاولة استعادة توازن المجتمع.
- امتزاج العناصر أدى إلى الاحتكاك الثقافي خاصة مع نشاط الترجمة، ونتج عنه ظهور تيارات وفلسفات جديدة متأثرة بالأفكار الوافدة، وتولدت عنه مفاهيم جديدة **كالزندقة.**

2- عوامل التجديد والثورة على القديم:

وصل الشعر الأموي إلى العصر العباسي (132هـ-656م) يحمل بعض المعاني الجديدة ولكنه ظل محافظا وحريصا على عدم المساس بالقدسية المطلقة للشكل الشعري القديم، فعندما حل في العصر العباسي وجد العهد غير العهد، والناس غير الناس، والبيئة غير البيئة، فهو عهد دخلته العناصر الفارسية بعد أن كانت تقف عن بعد، وتلوّن الناس بالألوان الفارسية، في نظام حكمهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وأزيائهم، وثقافاتهم، وأشعارهم التي لا تستطيع أن تعيش نائية عن كل هذا التطور، والحضارة، والترف والغنى، وانتشار الحانات والقيان والخمور، وعن هذه الطبقية الاجتماعية التي شهدها المجتمع العباسي؛ فقد

كانت هناك طبقة تتنعم بالحياة إلى غير حد، وهم من الخلفاء والوزراء، والأمراء والقواد، وطبقات قُتِّر عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حد، وهي طبقة الفقراء من عامة المجتمع.[1]

فعلى الرغم من أن القصيدة العربية القديمة قد ظلت على عهدها الاول- مع محاولات تجديدية في كل مرة من طرف الشعراء- إلا أنها لم تستطع الصمود من حيث بنائها **الفكري والفني** مع تبدل الحياة وما صاحبها من امتزاج ثقافي كبير مع الدولة العباسية وقبله بقليل، وهنا تأثرت القصيدة بمنهج التفكير الجديد الذي أنبتته مرجعيات فكرية وثقافية متعددة المشارب، ووجد الشاعر نفسه متحررا من تلك القيود القديمة، بل أصبح متسلحا بأدوات منهجية جعلته يناقش كل قديم، وإن كان بالأمس يحظى بالقداسة والتبجيل، فنوقشت الأطلال والدّمن، وانقطعت الصلة بالموروث من صور البيئة القديمة، وكان **مطيع بن إياس** مثلا من أوائل من عبّر عن هذا الانقطاع:[2]

لأحسنُ من بَيْدٍ يَحَار بهـــا القَطَـــا ومن جَبَلَيْ طيّ ووصـــفكما سَـــلعا

تلاحظُ عينـــي عاشـــقين كلاهمـــا له مُقلة في وجه صـــاحبه ترعـــى

يمثل هذان البيتان الهمسات الأولى للثورة على القديم والتي جسدها فيما بعد الشاعر **أبو نواس** وقبله بشار بن برد ومسلم بن الوليد، فأصبح يناضل لأجلها وفق مذهب جديـــد يدعو له، والذي يقوم على استهجان المقدمة الطلالية.

إذن فلقد كان التجديد في العصر العباسي «أمرا محتوما، ذلك أنّ عوامل التجديـــد وأسبابه تهيأت في هذا العصر على نحو يبعث التغيير في نمط الحياة، ونمط الذوق، ونمط التفكير».[3]

ومن عوامل التجديد **بيئة الرقة والمجون**؛ فقد كان لهذه البيئة أثر خطير في توجيه الشعر العباسي من البيئة العربية القديمة التي رافقته ورافقت صوره وعباراته إلى بيئة جديدة صورت حياة الحواضر وما فيها من رقي وترف وقصور ورياض، حيث ضعفت الصلة بين الشاعر المحدث الّذي نشأ في بيئة جديدة مغايرة وبين البيئة العربية القديمة التي بدأت تختفي وتنحصر في الموروث فقط، يقول طه أحمد إبراهيم: «فإذا ما افتتح الجاهلي أو الإسلامي مديحه بالنسيب والوقوف على الأطلال، فإن ذلك كان من بيئته، ومن طبعه، وإذا ما وصف الناقة ووصف ما لاقاه في الصحراء من عناء وتعب، وما صادفه من حيوان ونبات فإنّ ذلك مقبول منه لأنّه يفصح فيه عن أمر واقعي، ويصور فيه حالة نفسية قامت به... ولكن أيصح من شاعر كأبي نواس يقيم في بغداد مع الرشيد والأمين أن يستهل مدائحه بأطلال لم يقف بها، وناقة لعلّه لم يركبها؟ أيصح أن تكون الديباجة التي أخذت عناصرها من مشاهد الصحراء صالحة لمن يقيم على ضفاف دجلة بين ترف ولهو وقصور ورياض؟ وكما أنّ الديباجة الجاهلية صادقة لأنّها تصور حياة الجاهلية البدوية، فكذلك يجب أن تكون ديباجة الشعر الحديث صادقة تصور الحياة الحضرية الناعمة، وإذن فلابد من الانصراف من هذه المطالع القديمة والتفكير في شيء جديد ملائم... وهنا مال أبو النواس إلى إظهار الأشياء في حياته، فاستمد منها ديباجة شعره: الخمر والندامى ومجالس الشراب، ومال غيره إلى ذكر النعيم، والقصور والرياض والورد والأزهار، فأوجدوا ديباجة جديدة هي مرآة للحياة في بغداد وفي الكوفة، وفي الحواضر الإسلامية المترفة».[1]

ومن عوامل التجديد والثورة على القديم أيضا **امتزاج الحضارات والثقافات المختلفة**؛ فلقد اتسعت رواية الشعر القديم وازدهرت على يد اللغويين أمثال الأصمعي، والمفضل الصبي وخلف الأحمر وحماد الرواية، وحوّل هذا الاتجاه المحافظ من علماء

اللّغة السليقة العربية إلى شعراء الحضر، حيث جمعوا لهم اللّغة والشعر الجاهلي والإسلامي ووضعوا لهم مقاييس **اللّغة والشعر** وضعا دقيقا، وظلوا يبعثون فيهم الإيمان بأنّ الشعر القديم هو القدوة المثلى، يقول الباحث صلاح مصليحي في هذا الصدد: «أن ازدهار الحضارة وانتشار الثقافات المختلفة أدى إلى تحول الشعر في هذا العصر من سليقة موروثة إلى ثقافة تكتسب بالدرس والمرانة، فنما الشعر وقوي إبداع الشعراء، وزاد تمكنهم من اللّغة وتعمق أفكارهم، فجددوا في القديم وقالوا في الحديث»[1]، كما ازدهرت حركة **الترجمة** في العصر العباسي نتيجة التأثر بالثقافات الفارسية والهندية واليونانية خاصة في نظم الإدارة (الدواوين)، وفي الفكر والفلسفة والأدب، ولقد نتج عن ازدهار علوم اللّغة العربية من جهة ونقل معارف الأمم الأخرى من جهة أخرى نهضة علمية وفكرية واسعة أدت- على الصعيد الفكري- إلى ظهور ما يسمى بعلم الكلام.

لكن التأثر بهذه الأفكار الوافدة- إلى جانب زيادة التحرر الاجتماعي والمجون_ ولدّ حركات منحرفة متطرفة تجدر الإشارة إليها لكونها تلعب دورا خفيا وراء حركة التجديد والثورة في هذا العصر، ومن أشهر هذه الحركات **الشعوبية والزندقة**؛ أمّا الشعوبية التي كانت تسعى لسلب الحكم من العرب وتسليمه للأعاجم فاعتمدت على إبراز مثالب العرب وتكبيرها يوازيه إبراز لفضائل العجم وتمجيدهم من خلالها، أمّا عن الزندقة فهي مهاجمة للإسلام ونشر للديانات والمذاهب الفارسية كالزرادشتية والمانوية، والمزدكية، ولقد ارتبطت الزندقة بعوامل مثل اللهو، فتقاطعت مع التحلل من قيود الدين والاستهتار بعقائده وشعائره، حتّى أطلقت أحيانا على كلّ مستهتر ماجن فقال أحدهم:

لســـت بزنـــديق ولكنمـــا أردت أن أتوسم بـــالظّرف

كما تقاطعت خاصة مع عامل آخر وهو الحياة العقلية التي استوعبت الثقافات الأجنبية، وما فيها من نظريات وجدل فلسفي وديني، ولذا ربط غالبا بين الزندقة والدين، فالزندقة أخذت عند الشعراء اتجاهين:

1- هي استهتار بالدين وشعائره يمارسه أهل الخلاعة والمجون، ويظهرون فيه خفة ظلهم وجرأتهم بسبب الشرب واللهو، فهي هنا "عبث سكارى وعربدة مخمورين".

2- وهي أحيانا زندقة خالصة تشكك في الإسلام وتطعن فيه لترفع من شأن الديانات الفارسية القديمة، ولقد ربط الجاحظ بينها وبين الشعوبية، لأن الكيد للإسلام- في رأيه- هو الّذي سيزيل السيادة العربية، فإذا كانت الشعوبية هدفت إلى إعادة مجد الفرس، فإنّ الزندقة هدفت إلى إعادة ديانتهم.

كما يضيف الباحث مصطفى السيوفي **عاملا آخر** يعده باعثا على التجديد في الشعر العباسي، وهو يتمثل في الأحداث التي كثرت في هذا العصر؛ «وهي تنقسم قسمين: الصراع الخارجي المتمثل بحروب المسلمين مع الروم الطامعين، والصراع الداخلي المتمثل بالثورات الكثيرة التي كانت تستهدف تقويض الحكم القائم.... وكان للشعر في كلا الجانبين مشاركات كبيرة ومؤثرة».[1]

كل هذه العوامل والأمور لعبت في عقلية الشاعر العباسي، وجعلته يتمرد ويثور على القصيدة العربية القديمة، الأمر الذي أدى إلى دفع حركة التجديد في الشعر العربي إلى الأمام، وتطورها باتجاه الإبداع، إذ ما لبثت ملامح التطور أن اتضحت وتحولت في العصر العباسي إلى تيارات جديدة قوية، قادت القصيدة العربية باتجاه الحداثة الشعرية التي بدأت ببشار ورسخها أبو تمام.

3- مظاهر التجديد:

حدث تطور للذوق الأدبي في العصر العباسي الأوّل نظرا لتطور الحياة الأدبية والاجتماعية والثقافية، وتزايد اهتمام النّاس بشعر المحدثين لقربه منهم ولصوقه بتجاربهم النفسية والحياتية، ولتعبيره عن مشاكلهم، وتصويره لبيئتهم وواقعهم[2]،/ فقد ظهر جيل

جديد اصطلح الدارسون على تسميته بـــ"المولد" استطاع أن يحمل لواء التجديد، ويتخلص إلى حد بعيد من الكثير من مظاهر القصيدة العربية، وقد كان لذلك التجديد مظاهر بارزة ميزته سواء من ناحية **الموضوع الشعري** أو من ناحية **الأداء الشعري**.

فمظاهر التجديد في القصيدة العباسية متنوعة فكريا وفنيا، ويحسن أن نبدأها بما عُرف بثورة بعض الشعراء ضد المقدمات الطلية، وأشهرهم أبو نواس.

1/3- التجديد في مقدمة القصيدة:

أعرض بعض شعراء العصر العباسي عن افتتاح قصائدهم بذكر الأطلال ووصفها والبكاء عليها، لأن معظم شعراء هذا العصر من المولدين الذين لا تربطهم أي عاطفة بمعالم الحياة العربية الجاهلية، فما حاجتهم إلى تصوير شيء لا وجود له في مجتمعهم، وقد عبر أبو نواس تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور فقال:[1]

مالي بدار خلتْ من أهلهـــا شـــغل ولا شجاني لها شخص ولا طلـــلُ
ولا رســـوم، ولا أبكـــي لمنزلـــةٍ للأهل عنهـــا وللجيـــرانِ مُنْتَقـــلُ
بيـــداء مقفـــرةٌ يومـــا فأنعتُهـــا ولا سَرى بي فأحكيه بـــه جَمَـــلُ
ولا شَتَوْتُ بهـــا عامًـــا فـــأدركني فيها المصيفُ فلي عن ذاك مرتحلُ
لا الحزن مني برأي العين أعرفـــهُ وليس يعرفنـــي ســـهلُ ولا حبـــلُ
لا أنعت الروض إلّا ما رأيت بـــه قصراً منيعاً عليه النخلُ مشـــتملُ
فهاك من صِفَتي إن كنت مُخْتَبِـــرًا ومُخْبِرًا نفـــرًا عنـــي إذا ســـألواُ

تبدو الفكرة التي يقدمها أبو نواس من خلال هذه الأبيات في غاية البساطة والوضوح؛ فهو لا يعرف البادية ولا صلة بينه وبينها، فلما يبكي لها وعليها، ولم يركب إلى ممدوحه ناقة ولا جمل، فما حاجته إلى وصفهما، فهو ليس ملزما بتقليد شعري سنّهُ

القدماء من أصول وبنيات شعرية لا يقبلها العصر، بل يجب أن يعبر عن روح العصر، كما في وصفه للخمر حيث يقول:[1]

دع عنك لومي فإنّ اللــوم إغــراءُ   وداوني بالتي كانــت هـــي الـــداءُ
لتلـــك أبكـــي ولا أبكـــي لمنزلــــةٍ   كانت تحــلُّ بهـــا هنــدُ وأســـماءُ

يحاول أن يثبت الشاعر بأن روح التجديد كانت استجابة لروح العصـــر، ومطلبـــا للتغيير الذي فرضته البيئة العباسية الجديدة، لذلك يورد الفعل (دع) حاملا لدلالات الترك والإعراض، عن تلك المقدمات البكائية، واستبدالها بمقدمات من روح العصر كالمقدمـــة الخمرية مثلا.

أمّا عن **دوافع** تمرد **أبي نواس** على المقدمة الطللية، فيرى بعض الباحثين أنّ دعواه لترك الأطلال لا تستند إلى دوافع فنية فحسب، بل تدفعها دوافع بعيدة كلية عن الفن؛ وهي شعوبيته وفارسيته التي دفعته وأمثاله إلى التمرد على التقاليد العربية الإسلامية، والإقلال من قيمة ومكانة العرب[2]، حيث يرى الشاعر أنّ التغني بالأطلال والدِمن لا يمكن إلّا أن يكون تمجيدا للعرب، لأنّها تمثل روحهم، وعليهم أن يحيطوها بنوع من الحظوة والقداسة، ولذلك يجب كسر هذه القداسة من خلال ضربهم في أطلالهم، يقول:[3]

دع الرسْـــمَ الّـــذي دثَــرَا يُقاسي الــريح والمطــراَ
وكن رجلاً أضاع العلـــــ ـــم في اللذَّات والخطــراَ
ألم تر مـــا بنـــى كســرى وســـــابورَ لمــــن غبـــراَ
منارة بنـــي دجلـــة والـــــ ــفرات أخصها الشــجراَ

تفصح الأبيات عن حقيقة دعوة الشاعر، كونه لا يكتفي بالسخرية من الأطلال والتي أطال العرب البكاء عليها- في نظره-، مع أنّها لا تعد شيئا قياسا بالإرث الحضاري الّذي تركته الحضارات الأخرى كالفارسية، ليفتخر الشاعر من ورائها بانتمائه الفارسي، شأنه في ذلك شأن كلّ الشعوبيين، وعلى ذلك نجده يقيم مقارنة بين تلك المنازل الجميلة والسهول الخصبة وقصور كِسرى وبين بادية العرب وأطلالها، وهي ذريعة للطعن على العرب، حتّى أنّ دعوته للتخلص من المقدمة الطللية «مفتعلة لأن الشعراء كانوا مطلقي الحرية في أن يبدأوا قصائدهم بالأطلال وبغيرها، والنماذج الشعرية تشهد أنّ أكثر شعراء العصر لم يبدأوا قصائدهم بالأطلال وإنّما ابتدأوها بالغزل أو بوصف لأشياء عصرهم الحضري أو باشروا غرضهم دونما مقدمات، وقليل منهم فقط كان يحرص على المقدمة الطللية اعتقادا منه أنّ الشعر الجاهلي هو النموذج الأعلى لكل شعر تلاه»[1] وإن كان بعض الباحثين أرجع تمرده على المقدمة الطللية إلى أنّه كان يبحث عن الصدق الفني[2]، في حين يرى بعضهم الآخر أنّها لم عن شعوبية ضد العرب، وإنّما هي موجهة ضد الأعراب وحياة البادية مفضلا في ذلك حياة الفرس وحضارتهم.[3]

والحقيقة أنّ الّذي يستعرض شعره يجد الكثير من الأشعار التي يتهجم فيها على العرب، ودينهم وحياتهم وثقافتهم، بل ويتهجم- صراحة- على القبائل العربية؛ بني أسد، بني تميم، وقيس وسائر القبائل فنجده يقول مثلا:[1]

عاج الشَّقِيُ على دارٍ يُسَائِلُها ... وَعُجْتُ أسألُ عن خَمَّارة البلدِ

قالوا ذكرتَ ديار الحي من أسد ... لا درَّ دَرُّكَ قُلْ لي من بَنُو أسَدِ

لا يَرْقَىء الله عَيْنَيْ من بكى حَجَرًا ... ولا شَفَىَ وَجْدَ من يَصْبُو إلى وَتِدِ

ومَنْ تميمٌ ومَنْ قَيْسٌ وإخوتُهم ... ليس الأعاريب عند الله من أحدِ

دَعْ ذا عَدِمْتُكَ، واشربها مُعَتَّقَةً ... صَفْرَاءُ تُعْتِق بين الماء والزَّبَدِ

يدل تصريحه في هذه الأبيات على أنّه لم يقصد الأعراب بل مختلف القبائل العربية، وهذا هجوم شعوبي صريح على العرب جميعا، بل إنّه يتخطى الحدود ويعد من يقف على الديار شقيا، فهو هجوم حتّى على النفسية العربية وميولها ومشاعرها، كما نراه يعرج عند ذكره للأطلال إلى الخمر، ويصفها وصفا دقيقا -في البيت الأخير من المقطوعة- وكأنه يريدها أن تحل مكان الأطلال، وكل ذلك نابع عن حقد شعوبي موجه في رأيي لأنّه وإن تظاهر أنّه يخاطب الأعراب وإن ادعى على أنّه يثور على حياة البادية، فالأعراب هم عرب، ومعظم العرب هم أعراب في جذورهم، وحياة البادية التي يهاجمها لم تكن موجودة إلّا في صحراء العرب.

ولكن دعوة **أبو نواس** للتخلي عن المقدمة الطللية، وإن «تلونت باللّون الفارسي، وبدت شعوبية المظهر، لكنّها دعوة إلى التجديد، والملائمة بين الشعر والحياة، وترك القيم والتقاليد الموروثة».[2]

ولقد استجاب لهذه الدعوة كثير من شعراء العصر العباسي، فوجدناهم يستحدثون مقدمات جديدة تلائم طبيعة العصر العباسي من جهة كما في مقدمات وصف الطبيعة (عند

أبي تمام والبحتري)، والمقدمة الحكمية (عند المتنبي وأبي تمام وأبي العلاء المعري)، ومقدمات قصصية تستعرض الماضي كما جاء عند أبي تمام، - والتي سنقف عليها في التجديد في الموضوع الشعري لاحقا-، ومنهم من حافظ على المقدمة التقليدية مع تقليص عناصرها (مبدأ الاقتضاب في المطالع)، ولكن تبقى أكبر حركة ثورية في هذا المجال هي تلك الداعية إلى استبدالها بالمقدمة الخمرية، والذي يعد أبو نواس زعيمها.

2/3- البعد عن القصائد المطولة ووحدة الموضوع والتجديد في موسيقى الشعر:

إنّ شعراء العصر العباسي أخذوا يبتعدون عن القصيدة الطويلة، ويميلون إلى استخدام **المقطوعات الشعرية**، وذلك لطبيعة التطور الحضاري الّذي آل إليه المجتمع الإسلامي، فكلما تعقدت أسباب الحضارة، وطرائق الحياة تسرب الملل إلى النفوس من الأعمال الأدبية المطولة، ومن دواعي الميل إلى المقطوعات أنّ الشاعر العباسي أصبح في كثير من الأحيان- عدا المديح- يحد قصيدته بفكرة معينة لا تستغرق منه في الغالب أكثر من أبيات معدودة، فالقصيدة العباسية قامت على وحدة الموضوع على خلاف القصيدة العربية الجاهلية التي تعتمد بالدرجة الأولى على وحدة البيت، حيث ينتقل الشاعر القديم في قصيدته أو معلقته من فكرة إلى فكرة أخرى، وكأنّها تتكون من بضع قصائد مختلفة الأغراض والأفكار، ولعلّ أن «حركة **الغناء** في هذا العصر كانت وراء الإكثار من المقطعات الشعرية والنظم على مجزوءات البحور»[1]، والإقبال على الأوزان الخفيفة الملائمة للغناء كالوافر، والخفيف، والرمل، والمتقارب، والهزج، وذلك لتطور الذوق العام الذي أرهفته الحضارة ورققته المدينة، ومن ذلك قول **مطيع ابن إياس** الذي جاء في كتاب الأغاني:

إكليلها ألوان ووجهها فتان

وخالها فريد ليس له جيران

وتنسب **لأبي نواس** منظومة مثنوية[1] منها قوله:

يـــــا راقـــــد الليـــــل   احـــــذر مـــــن الويـــــل
لا تـــــأمن الـــــدهرا   إن لـــــه غـــــدرا
الـــــدهر ذو صـــــرفِ   يرميـــــك بـــــالحتف
يـــا نفســـي يـــا نفســـي   لقـــد مضـــى أمســـي

3/3- ظهور الاتجاه الشعبي في القصيدة العباسية:

إن **الاتجاه الشعبي** في شعر العباسيين بارز جدا، وربما يكون للتمازج بين عناصر المجتمع وتقارب طبقاته، ولتنامي دور العامة في حياة الدولة دوره في التفات الشاعر العباسي إلى كلّ شرائح المجتمع والخروج من فلك الطبقة الحاكمة، كما أنّ انتشار الأغاني الشعبية، ورغبة الشعراء في الانتشار الأوسع لأدبهم كان له أثر كبير في بلورة هذا الاتجاه، حيث نستطيع التمييز بين أدب رسمي يعيش في البلاطات، وبين أدب آخر يتكون في الأوساط الشعبية وشعرائها وأدبائها، وإنّ قصّة بشار بن برد مع خادمة ربابة تشرح هذا التوجه، حيث يقول: (نقلا عن الأغاني)

ربابـــــة رب البيـــــت   تصبُ الخل في الزيت
لها عشـــر دجاجـــات   وديك حسن الصـــوت

ولقد أجاب حين لاموه في هذا الشعر: «إنّه أحب إليها من قفا نبك»؛ أي أقرب إليها وأنسب مع اهتماماتها وإدراكاتها، وهذا التوجه هو ميزة من ميزات الصياغة الشعرية العباسية التي فرضتها بيئته وظروفه، وامتدت إضافة إلى الأغراض إلى العبارة والمعاني والصور، يقول أحد الباحثين: «وكذلك استخدامهم لألفاظ الشعب وأساليبه في الموضوعات الشعبية كالزهد والغزل، وقد أثر هذا الاتجاه الشعبي لا في ألفاظ الشعراء فقط، وإنّما في

[1]- المثنوي: عبارة عن قصيدة يستقل كل بيت منها بحرف روي، تأتي مصرعة الأبيات غالبا، وهو قالب شعري فارسي استعمل بصورة واسعة في الشعر التعليمي، للتوسع ينظر تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول): شوقي ضيف، ص: 197.

أساليبهم أيضا، فربما اقترب الشاعر الشعبي في أسلوبه من الحديث العادي كقول **جحظة البرمكي**:[1]

الحمد لله ليس لـــي كاتـــب ولا على باب منزلي حاجب
ولا حمار إذا غرمت على ركوبه قِيل جحظـــة راكـــب
ولا قميص يكون لي بـــدلاً مخافة من قميصي الـــذاهب

فبيئة المجون والغناء والسمر لا تتقبل الصياغات الرفيعة، بل تستثقلها، وتتطلب صياغات بسيطة شعبية، بل وعامية.

4/3- الاتجاه الترفيهي في القصيدة العباسية:

والتوجه السابق- إلى جانب بيئة الرقة والمجون واللهو- مرتبط بتوجه آخر يلاحظ في أكثر الأشعار العباسية، وهو الاتجاه الترفيهي؛ فقد تم تحويل الشعر من الاكتفاء بالمواقف الرسمية والأدبية الموروثة إلى التسلية والترفيه، حيث يلاحظ بعض الباحثين أنّ الخمريات والغزل بالمذكر تتضمن عنصر التسلية والترفيه، إذ كان الشعر يسجل كثيرا من الأحداث أو الوضعيات البسيطة لمجرد ارتباطها بالنكتة والتسلية- في قالب كاريكاتيري ساخر- كما نقرأه مثلا في قصيدة **بشار** على لسان حماره بعد موته، قال إنّه رآه في المنام، فسأله لماذا مات رغم إحسانه إليه فقال:

سيدي خُـــذْ بـــي أتانًـــا عنـــد بـــاب الأصـــفهاني
تيمتنـــي يـــوم رحنـــا بثناياهـــــا الحِســـــان
وبغـــــــــنجٍ ودلال سَـــلَّ جســـمي وبرانـــي
ولهـــا خَـــدٌّ أســـيل مثـــل خـــدّ الشَّـــيفراني
فلذا مِتُ ولـــو عشـــت إذن كـــــان هـــــواني

ونقرأ عددا كبيرا من قصائد **أبي العبر** من أبرز الحمقى والمتماجنين، **وأبي دلامة** في زوجته، أمّا عن **التجديد في الموضوعات الشعرية**؛ فنلمسه في جانبين:

أ- التجديد في الموضوعات القديمة، والذي يتضمن تحويرات وتعديلات داخل الموضوع نفسه (تفتيت الموضوع الشعري).

ب- الموضوعات الجديدة.[1]

3/5- التجديد في الموضوعات الشعرية:

تكون بدايتنا مع الموضوعات القديمة؛ فالموضوعات القديمة كالمدح والرثاء والغزل والهجاء والوصف ظلت هي الموضوعات الأساسية للشعر العباسي، لكن الشعراء وجدوا فيها مجالا واسعا للتطور والتجديد؛ وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة، ومضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة.

ففي **المديح** مثلا، معروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة وظلت المدحة العباسية تبثُ في الأمة التربية الخلقية القويمة، إذ كان الشعراء يعيدون ويبدؤون في تصوير المثل الخُلقية صورا حية ناطقة، وقد أشعلوا جذوتها في النفوس بما رفدوا به من أخيلتهم الخصبة، كما مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية **مثالية الحكم**، وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة...، ومثال ذلك قول مروان بن أبي حفصة في مطلع قصيدة للمهدي:

أحيا أمير المؤمنين محمدٌ سُنَنَ النبيِّ: حرامها وحلالها

ويقول **أبو العتاهية** في هارون الرشيد:

وراعٍ يراعي الله في حفظ أمةٍ يدافع عنها الشَّر غير رَقُودِ[2]

ولم يصور الشعراء العباسيون المثالية الخلقية العامة في مدائحهم، وكذلك المثالية السياسية فحسب، بل صوّروا أيضا **الأحداث والوقائع** التي حدثت في عصور الخلفاء، وبذلك قامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة، ويكفي أن نذكر من تلك القصائد الغرر والوثائق التاريخية المخلدة بائية أبي تمام في المعتصم (فتح عمورية)، وميمية المتنبي في سيف الدولة.

وإذا تركنا المديح إلى **الهجاء** وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح، لاتصاله بحياة الشعب والعامة؛ فقد عدل فيه الشاعر العباسي من المهاجاة القديمة بالأحباب والأنساب إلى الهجاء الفردي والمثالب الخُلُقِية والخَلْقِية، «وبذلك يصبح الهجاء **الصحيفة التربوية** المقابلة للمديح؛ فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع»[1]، وقد تنافس الشعراء في رسم معانيه فلم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها، حتى أنهم لم يتورعوا أحيانا عن هجاء الخلفاء والوزراء.

كما ركز الهجاؤون على رسم صور **كاريكاتورية ساخرة** قصيرة للمهجو، وقد أعانهم في ذلك ثقافتهم العصرية فجاء هجاؤهم أشدّ إيلاما وأوجع وخزا لما فيه من استخفاف وتهوين وتحقير، من ذلك قول **حماد عجرد** يهجو بشار بن برد، وكان أعمى:

وأعمى يُشبه القِردَ إذا ما عَمَى القِردُ
دَنَى لم يَرُحْ يومًا إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
ولم يَحْضُرْ مع الحُضَّا رِ في خيرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخْشَ له ذَمٌّ ولم يُرْجَ له حَمْدُ

ونشط الشعراء في **الرثاء** نشاطا واسعا، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلّا وأبنوه تأبينا رائعا، وقد ظل التركيز فيه- كالمدح- على المعاني الإسلامية في كلا محوري المرثية من **تفجّع وتصبّر**.

كما ظهرت في الرثاء ضروب جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر، من ذلك رثاء المدن المنكوبة، ورثاء أشخاص من طبقات مختلفة (كالمغنين)، فالحضارة الجديدة أسست علاقات جديدة بين الإنسان والشيء أو بينه وبين الحيوان أو بينه وبين وطنه، وهنا تظهر **نزعة الاهتمام بالذات** قوية في شعرهم، وهي تقابل تماما ما نلقاه من تغني القدماء بالقبيلة على حساب الفرد، حيث نقرأ قصائد كثيرة في وصف الشعراء لأحاسيسهم وآمالهم وظروفهم حتّى ضمن قصائد المديح نفسها، قال **صالح بن عبد القدوس** يرثي عينه:

عزاءُك أيهـــا العـــينُ السَّـــكوب ودمعـــكِ إنّهـــا نُـــوَبٌ تَتُـــوبُ
وكنت كريمتي وسِراج وجهـــي وكانت لي بـــك الـــدنيا تطيـــبُ
فإن أَكُ قد ثَكِلْتُـــكِ فـــي حيـــاتي وفارقني بـــك الإِلْـــفُ الحبيـــبُ
على الدنيا السَـــلام فمـــا لِشـــيخ ضـــرير العـــين فـــي الـــدنيا

ومثله بكى **أبو يعقوب الخزيمي وأبو الشيص الخزاعي** أبصارهما، وفي هذا دلالة على الرقي الحضاري الّذي بلغ أوجه في العصر العباسي، ودفع بالشعراء إلـــى تفتيـــت الموضوعات الشعرية استجابة لروح عصرهم.

أمّا في **الوصف** فقد انصرف الشعراء العباسيون إلى بيئتهم الجديدة يصفون مظاهرها، لقد وصفوا الخمر الموضوع القديم الّذي كان من أشهر أعلامه الأعشى في العصر الجاهلي، والأخطل في العصر الأموي، لكن أيا منهما لم يصل في وصف الخمر مرتبة **أبي نواس** الّذي نظم قصائد ومقطوعات كثيرة في وصفها، وكان يعاملها معاملة الحبيبة ويحاورها، ويصف مجالسها، وساقيها وأوانيها الحضارية الجميلة...، واشتغلوا أيضا بوصف الطبيعة، «وقد سلكوا في هذا مسلكين أولهما: نظم مقطوعات خاصة بالطبيعة، وثانيهما: أن تأتي الطبيعة مقدمة لغرض آخر كالمديح»[1]، يقول أبو تمام في وصف الطبيعة:[2]

يـــا صـــاحبيَّ تقصّـــيا نظريكمـــا تَرَيَا وجوه الأرض كيف تصـــوَّرُ
تَرَيَا نهـــارًا مشمســـاً قـــد شـــابه زهر الرُّبَى فكأنمـــا هـــو مقمـــرُ
من كلّ زاهـــرة تُرقـــرقُ بالنـــدى فكأنمـــا عـــينٌ إليـــك تحـــدَّرُ
تبـــدو ويحجُبُهـــا الجمـــيمُ كأنّهـــا عـــذراء تبـــدو تـــارة وتَخْفَّـــرُ

وبعد عدة أبيات على هذا النسق يصل الحديث عن الطبيعة بالمديح فيقول:[1]

خُلُـــقٌ أطـــلَّ مـــن الربيـــع كأنّـــه خُلُـــقُ الإمـــام وهديـــهُ المُتَيَسِّـــرُ
في الأرض من عدل الإلمام وجوده ومن النباتِ الغَضِّ ســـرجٌ تَزْهَـــرُ

فالدارس لهذه الأبيات يلاحظ تلاعب الشاعر بالمعاني، بحيث يعهد إلى الحفاظ على تقاليد القديم في مقدماته الطللية، ولكنه يعمد إلى التجديد مستعملا تقنيات أسلوبية جديدة من خلال استغلال **الطبيعة** كبديل عن المرأة ملبسا عليها عواطفه، ومبديا إعجابه بها مخالفا بذلك سواد من الشعراء الّذين كانوا يقفون على ديار المحبوبة يبكون ذكراها.

بل إنّه افتتح قصيدته من خلال استعراض الماضي من خلال إعطاء لمحات خاطفة قبل دخول غرض المدح -الاتجاه بالمقدمة ناحية الفن القصصي-، ويتجلى ذلك في قوله:[2]

رقت حواشي الدّهر فهي تمرمـــر وغدا الثرى فـــي حليـــة يتكسَّـــرُ
نزلتْ مقدمـــة المصـــيف حميـــدة ويـــد الشـــتاء جديـــدة لا تُكفـــرُ

وهكذا أصبح العصر العباسي عصر المبالغات والتوليد، والابتكار والتجديد، وتأثر الشاعر بتلك الحضارة، وأخذ يزخرفها وفسيفسائها في الصور والتشابه والاستعارات، لأنّ الشاعر عادة ما يستعير صورة من واقع بيئته، من ذلك تشبيه أبي تمام- في البيت السابق- الحِلْمَ بالبُرد الرقيق الحواشي، كما أثرت الحضارة في أسلوب الوصف تأثيرا متعدد الوجوه، كان **البديع** أهمها جميعا بما يشتمل عليه من تعقيد للمعاني، وتوليد وإسراف

في الجناس والطباق، وتنافر الأضداد... فيضيع- قارئه- أحيانا بين هذه الأساليب الزخرفية، ولا يكاد يدرك المعنى المراد إلّا بعد جهد وإعمال فكر، ولهذا عُدَّ بشار وأبي نواس أيضا ضمن مذهب البديع، وإن كان رائده هو مسلم بن الوليد ثمّ تلميذه أبو تمام من بعده.

أمّا عن **الغزل**، فكان طبيعيا أن يشيع الغزل الماجن في هذا العصر- إلى جانب الغزل العفيف عند العباس بن الأحنف-، وبلغ من حدته أنّهم كانوا يتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجواري، كما شاع بينهم الغزل بالغلمان -المذكر-[1]، متحررين من كلّ خلق وعرف ودين، فقد اشتهرت في العصر العباسي جماعات من المجان يؤلفون حلقة، ويتجمعون في أماكن للخمور والمجون مثل جماعة مطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد ويحي بن زياد الحارثي وغيرهم من الشعراء، وقد جرت بينهم أخبار وأشعار من محاورها العامة: المجاهرة بارتكاب المحرمات (عادية أو شاذة)، والتعرض للدين والعبادات، فتيار المجون جسد تيارا كاملا في العصر العباسي، وإن رويت بعض المجونيات في أخبار وأشعار القرن الأوّل.

ومع ارتباطه إلى حد كبير بحركة الزندقة والشعوبية، وتعدد ألوانه من إباحة وشذوذ وارتكاب محرمات، فهو- في رأيي- من **الموضوعات الجديدة والمستحدثة** على الشعر العربي لذا تركته في هذه المحاضرة ليكون آخر الأغراض الشعرية المدروسة.

وإلى جانب **تيار المجون**، يمكن أن نضيف ولادة نوع جديد من الشعر شهده هذا العصر وهو ما أطلق عليه الشعر التعليمي، ونقصد به «فن الشعر التعليمي الّذي دفع إليه رقي الحضارة العقلية، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار ومن أوائل من يلقانا من ذلك ما تحدث صفوان الأنصاري في أشعاره عن فضل الأرض، وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة، ولا ريب في أنّ أبان بن

عبد الحميد هو الّذي عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد»[1]، ومن الموضوعات الجديدة برزت بشكل واضح في هذا العصر **الزهد والشعر الصوفي**؛ فمعالم التصوف ومبادئه ومصطلحاته وضعت في القرن الثالث بظهور الجنيد (ت297ه)، وإن بدت ملامحه في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري لدى إبراهيم بن أدهم البلْخي (ت160ه)، ورابعة العدوية (ت180ه)، إذ في الوقت الذي كان فيه أبو العتاهية وأضرابه يتوجهون بالنص الشعري الديني نحو النظام الزهدي- التخصص في الشعر الزهدي كان أيضا في العصر العباسي على يد عبد الله بن مبارك، ومحمد بن كناسة، ومحمود الوراق، وأبي العتاهية وإن كان حاضرا في العصر الأموي ومجالسه الوعظية- كان آخرون يؤسسون تكوينا جديدا لشعر ديني أعادوا عنصره الخام وهو "الشعر الصوفي".

ولن نتوسع في هذا الموضوع الثالث من الموضوعات الجديدة في العصر العباسي، والذي جاء كحركة حاولت مقاومة انغماس المجتمع في الترف والملذات والملاهي، واستعادة توازنه لأننا سنتناولها في محاضرة منفصلة لاحقا.

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بعض مظاهر التجديد الفني والفكري (الموضوعي) في القصيدة العباسية، والتي عرفت عدة تطورات وتحويرات وتعديلات كانت استجابة لروح العصر ومطلبا للتغير الذي أحلته البيئة العباسية بكل مجالاتها، إذ رأينا كيف كان الشاعر العباسي يحرص على التجديد، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده، ولم يكتفي بهذا، بل راح يكتشف موضوعات أخرى تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية.